القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

صلح الحديبية

١٧

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنَّ الّذينَ يُبايعُونَكَ إنَّما يُبايعُونَ اللّـه ، يدُ اللّهِ فَوقَ أيدِيهم ، فَمَنْ نكَثَ فإنَّما يَنكُثُ علـى نَفْسِـه ، ومَن أوْفَى بِما عاهَدَ عليهُ اللّهَ ، فَسَيُؤتِيهِ أجْـراً عَظِيما ﴾ .

(قرآن كريم)

١

حاوَلَتْ قُرَيشٌ أن تَقضِيَ على الإِسلام ، فى بَدْر ، وفى أُحد ، ويومَ اجتَمَعَتِ الأحزابُ على حربِ محمَّد ، ولكنَّ الإسلامَ ثبتَ فى وجهِ أعدائِه ، وانتشَرَ على الرَّغم من سيوفِ الأَعداء ، التى تُرِيدُ أن تُجهِزَ عليه ؛ انتَشَرَ بالحُجَّةِ والاقتناع ، وكان الاضطهادُ يزيدُ الناسَ إيمانًا به ، ودُخُولا فيه ، وكان عددُ المسلِمينَ فى تزايُدٍ مستمر . ففِى بدرٍ قاتَلَ قريشًا ثلاثُمائة مُقاتل ؛ وفى غزوة أُحُد ، وكانت بعدَ بدرٍ بعامٍ واحد ، كانت عِدَّةُ الجيشِ الإسلاميِّ سبعَمائةِ مُقاتِل ؛ وكانَ المقاتِلُونَ المسلِمونَ فى غَزوةِ الخَندَقِ ألفَين .

كان الناسُ يدخُلُونَ فـى دينِ اللّـه أفواجـا ، وقـد دَخَلُوا فيه راضِين ؛ اتَّبَعُوا الإسلامَ لأنّه الدِّينُ الحَقّ ، وما انتشَــرَ يومًـا بحدِّ السيف ، ولكنّـه انتشرَ علـى الرَّغمِ من السيُّوف التى شُهِرَت للقضاء عليه .

٢

أرادَ رسولُ اللّه ﷺ أن يَخـرُجَ إلى مكـة للحـجّ ؛ وكان النّــاسُ يـأتُونَ إلى الكعبـة مـن كـلِّ مكـانٍ فـى الموسِم ، فَتَجَهَّــزَ المســلمون للخــروج إلى مكــة ، وخرَجُوا فى ثِيابِهم البِيــض على جِمـالِهم ، وكـانوا ألْفًا وأرْبَعمائة ، وكانوا عُزْلا مــن السِّلاح ، لِيُعلِنُـوا لِقُرَيشٍ أنهم لا يُريدُونَ حربَهم ، وإنّما جاءُوا زائِرينَ لهذا البيت ، ومعَظِّمِينَ له .

وفيما هم فى الطريق ، جاءَ إلى رسولِ اللّه رجُل ، وقال له :

ـ يا رسولَ اللّه ، هذه قريشٌ قد سمِعَت بمَسيرِك ، فخَرَجُوا وقد لبِسُوا جُلُودَ النُّمور ، يُعاهِدُونَ اللّه ألاَّ تدخُلَها علَيهم أبَدا .

لم يكنْ رسولُ اللّه يريد حربًا ، إنَّه إنَّما يُريدُ زيارةَ الكعبة ، فقال :

ـ يا وَيحَ قُرَيش ! لقدْ أكَلَتْهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوا بينى وبين سائِر العرب ، فإن هم أصابُونِى كان ذلك الذى أرادُوا ، وإن أظهَرَنى اللّه عليهم دخلُوا فى الإسلام وافِرين ، فما تَظُنُّ قُريش ، فواللّه لا أزالُ أُجاهِدُ على الذى بَعَثَنِى اللّه به ، حتى يُظْهِرَه اللّه ، أو أموتَ دونه .

وسارَت قافلةُ المسلِمينَ فى طريقٍ غيرِ طريقِ قريش، حتى ظهرتْ مكة ، فبَرَكتْ ناقةُ الرسول ، فقال الناس :

– بَرَكَتِ الناقَة .

فقال رسولُ اللّه ﷺ :

– حَبَسَها حابسُ الفيل عن مكة ، لا تَدْعُونى قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألُونَنى فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إلاّ أعطَيْتُهم إيَّاها .

كان النبىُّ يحبُّ مكةَ بلَدَه ، وما كان يحبُّ أن يَجْرِى فيها قِتال ، أو تَسيلَ فيها دماء ، وهى البَلْدَة الآمنة ، فقال لأصحابِه :

– انزِلُوا .

فنزَلُوا عن جمالِهم ، وعسكَرُوا بالقُربِ من مكة .

٣

جاءَ رجُلٌ من قُرَيشٍ إلى رسولِ اللّه ﷺ ، وقال له :

ـ ما الذى جاءَ بك ؟

فقال له رسولُ اللّه : إنه لم يأتِ يُرِيدُ حَرْبًا ، وإنما جاءَ زائِرًا للبيت ، ومُعَظِّمًا لِحُرمَتِه .

فعادَ الرَّجُلُ إلى قريشٍ وقال :

ـ إنَّ محمَّدًا لم يأتِ لِقِتال ، وإنما جاءَ زائِرًا لهذا البيت .

فقال الرجالُ الحاقِدونَ على محمدٍ ﷺ :

ـ إن كان جاءَ لا يُرِيدُ قتالا ، فواللّه لا يَدخُلُها علينا عُنْوةً (بالقوَّة) أبدا .

وراح رِجالٌ من قُريش يَفِدُونَ إلى النَّبِىّ ، يسألُونَه

عمّا جاءَ له ، فيقولُ لهم إنّه ما جاءَ يُريدُ حربا ، ولكنه جاءَ زائِرًا للكعبة ، ولكنَّ قريشًا لم تَقْنَع بما قال ، فرأى رسولُ اللّه ﷺ أن يُرسِلَ إلى قُريش رجلاً من رجالِه ، فَدَعا عُمَرَ بنَ الخطّابِ لِيُرسِلَه إلى مكة ، فيبلِّغ عنه أشرافَ قريش ما جاءَ له ، فقال عمر :

– يا رسولَ اللّه ، إنّى أخافُ قريشًا عَلَىَّ ، وقد عَرَفَت قريش عَداوَتى إيَّاها ، ولكنّى أدُلُّكَ على رجُلٍ أعَزَّ بها منى .

دعا رسولُ اللّه ﷺ عثمانَ بنَ عفّان ، وأرسَلَه إلى قريش ، فخرَجَ عثمانُ إلى مكة ، لِيُبَلِّغَ أبا سُفيانَ وأشرافَ القَومِ ، أنَّ رسولَ اللّه ما جاءَ يُريدُ حربا ، ولكنّه جاءَ يريد زيارة الكعبَة .

تأخَّرَ عُثمانُ في العَودَة ، فقَلِقَ رسولُ اللّه عليه ، وذاعَ بينَ المسلِمين أنَّ عُثمانَ قُتِل ، فلمَّا بَلَغَ ذلك رسولَ اللّه غضِب ، وجَمعَ المسلِمينَ تَحتَ الشجرَة ، وطلَبَ منهم أن يُبايِعُوه على الثَّأرِ بعثمان ؛ إنّه ما جاءَ للحرب ، ولكنَّ قريشًا قَتلت صاحبَه ، فما كان له أن يَفِرَّ بعد ذلك الاعتِداء ، وكانت هذه البَيعة هي بَيعَةَ الرِّضوان . وقَبلَ أن يتحرَّك المسلمون للثَّأر بعثمان ، ظهرَ عثمانُ بنُ عفَّان ، ومعه رجلٌ من قريش ، جاءَ يُفاوِضُ النبيَّ على الصُّلح ، فلما رأى رسولُ اللّه الرجُلَ قال :

ـ قد أرادَ القومُ الصُّلْحَ حين بَعثُوا هذا الرجل .

ودارت المفاوضاتُ بين رسولِ اللّه وسُهَيلِ بنِ

عمرٍو رسولِ قريش ، فاتّفقَا على أن يتهادَنا (أى لا يُحاربُ أحدُهما الآخر) عَشْرَ سنِين ، وأن يَرجعَ النبيُّ وصَحبُهُ عن مكة عامَهم هذا ، على أن يَعُودُوا إليها فى العامِ الذى يليه ، فيدخُلُوها ويُقِيمُوا بها ثلاثة أيام .

وغَضِبَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ لهذه الشُّروط ، فجاءَ إلى رسولِ اللّه يستنكِرُ هذِهِ المُفاوَضة ، قال له :

ـ يا رسولَ اللّه ، ألستَ برسولِ اللّه ؟

قال رسولُ اللّه ﷺ : « بَلَى » .

قال عُمَر :

أوَلَسنا بالمسلِمين ؟ ـ بَلَى .

ـ أوَليسُوا بالمشركين ؟ ـ بَلَى .

ـ فَعلامَ نقبَلُ الذِّل فى دينِنا ؟

فقال له النبىُّ ﷺ :

ـ أنا عبدُ اللّه ورسولُه ، لـن أُخـالِفَ أمـرَه ، ولَـن يُضَيِّعَنى .

لم يفهـم عُمرُ فـى ذلـك الوقـتِ حكمـةَ هـذه المعاهَدة ، فَغَضِب ، وغضِبَ كثيرٌ من المسلمين .

٥

دعـا رسـولُ اللّه ﷺ علِيًّا لِيَكتُبَ لـه نُصُـوصَ المعاهَدة ، فقال له :

ـ اكتب : باسمِ اللّه الرَّحمنِ الرَّحيم .

فقال سُهَيلٌ رسولُ قريش :

ـ لا أعرِفُ هذا ، ولكن اكتب : باسمِكَ اللَّهمَّ .

فقال رسولُ اللّه ﷺ لِعليّ :

ـ اكتب ، باسمك اللَّهمَّ .

ثم قال :

ـ اكتب : هذا ما صالَح عليه محمدٌ رسولُ اللّه سُهَيلَ بنَ عمرو .

فقال سهيل :

ـ لو شهِدتُ أنَّك رسولُ اللّه لم أُقاتِلْك ، ولكن اكتبْ اسمَك واسمَ أبيك .

فقال رسول اللّه لِعلِيّ :

ـ اكتب : هذا ما صالَحَ عليه محمدُ بنُ عبد اللّه سهيلَ بنَ عَمْرو ، اصطلَحا على وضْعِ الحربِ عن الناسِ عشرَ سِنين يَأمَنُ فيهنَّ الناس ، ويكُفُّ بعضُهم عن بعض .

وكُتِبَت المعاهَدة ـ والمسلمون فى حُزن شديد ، كانوا يظُنُّونَ أنهم سيدخلُونَ مكة ، وإذا بالنَّبىِّ يتفِقُ مع قريشٍ على أن يَرجعَ هذا العام ، لِيعُودَ فى العامِ

الذى يليه ، وعلى أنَّ من يأتِى رسولَ اللّه من قريشٍ بغيرِ إذنِ سيِّدِه ردَّه عليهم ، ومن جاءَ قريشًا من محمد ، لم يَرُدُّوه عليه .

٦

كانت هذه المعاهدة نصرًا لرسولِ اللّه ، وإن لم يفهَمْ ذلكَ أغلَبُ المسلمينَ الذينَ كانوا معه . إنَّه ضَمِنَ بها أن يأتِيَ إلى مكة فى العامِ القادم دون إراقةِ دماء ، وقد زادَتْ هذه المُعاهَدةُ فى عُلُوِّ شأنِ الإِسلام فى جَزِيرة العرب ، حتَّى إنَّ الذين جاءُوا إلى المدينة بعدَ توقِيعِها ليدخُلُوا فى دينِ اللّه ، كانُوا أكثرَ ممَّن جاءُوا يُعلِنُونَ إسلامَهم فى السنواتِ الستِّ السابقة .

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وفى الطَّريقِ أنْزَلَ اللّه

على رسولِه سُورةَ الفَتح ، فراحَ يقرَؤها على الناس :

﴿ بسمِ اللّه الرحمن الرحيم ....
إنّا فَتَحنا لكَ فَتحًا مُبينا ، لِيَغفِرَ لك اللّهُ ما تَقَدَّمَ من ذنْبِكَ وما تأخّر ، ويُتِمَّ نعمَتَه عليك ، ويهدِيَك صراطًا مُستَقِيما ، وينْصُرَكَ اللّه نصرًا عزيزا ﴾ .

﴿ إنَّ الذينَ يُبايِعُونَكَ إنّما يُبايِعونَ اللّه ، يدُ اللّه فَوقَ أيدِيهم ، فَمَنْ نكثَ فإنّما ينكُثُ على نفسِه ، ومن أوفَى بما عاهَدَ عليهُ اللّه ، فَسَيُؤتِيه أجرًا عَظِيما ﴾ .

ولّما أتمَّ رسولُ اللّه السُّورَة ، نزلَتْ الطمأنينةُ قلوبَ المسلِمين ، فقدْ أيَّدَ اللّه رسولَه ، ووَعَدَهم اللّه فتحَ مكة .

٧

وفى مكةَ سارَ خالِدُ بنُ الوليدِ مُطْرِقا ، يفكّر فى الدِّينِ الجديد ، الذى جاءَ به محمد ، فَيَجدُهُ دِيناً قَيِّما ، يدعُو إلى مكارِمِ الأخلاق ، فلماذا يكابِرُ ولا يدخُلُ فيه ؟ وفِيما هو فى تفكِيرِه قابَلَه عمْرُو بنُ العاص ، وقال له :

ـ أينَ يا أبا سُلَيمان ؟

قال خالدُ بنُ الوليد :

ـ واللّه إنَّ الرجلَ لنبىّ ، أذْهَبُ واللّه فأُسلِم ، فحتّى متى ؟

فقال له عمْرو بن العاص :

ـ واللّه ما جئْتُ إلاّ لأُسلم .

وسافَرا إلى المدينة ، لِيُعلِنا إسلامَهما ، وقابَلا

رسولَ اللّه ﷺ وأسلَما ، فلمَّا بَلَغَ قريشًا إسلامُ خالدِ بنِ الوليدِ فارسِها ، وعَمْرِو بنِ العاص داهِيتها ، تيقّنتْ أنَّ محمدًا ﷺ قد ازداد بهما قوّة .

كسبَ محمدٌ ﷺ بالسِّلم ما لم يكسبه فى أعظَم المعارِك الحربية .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .